البلاغة العربيّة

النشأة والتطوّر

اشتهر العرب بفصاحة اللسان, والقدرة على التعبير واختيار الألفاظ الدقيقة, وإنّ الباحثَ حينما يتلمس البذور الأولى للبلاغة العربية قبل عهد التدوين والتأليف يجد أن العرب عرفوا كثيرا من الأحكام النقدية التي أعانتهم على تفهم الشعر وتذوقه ونقده, والإمة التي أنجبت الشعراء الفحول والخطباء المصاقع لابد أن تعرف المعالم التي يختطها الشعراء ويترسمها الخطباء, وإذا كان كثير من الأحكام النقدية قبل الإسلام لم يصل إلينا ما وصل من شعر وخطب وأمثال فإن بعض تلك الأحكام تناقلتها الألسن وتداولتها الكتب.

وقد وصف القرآن الكريم العرب بأنهم أصحاب بيان فقال سبحانه وتعالى: **((الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ))** سورة الرحمن 1-4. وقال عن حسن كلامهم وشدّة أسره وتأثيره في النفوس: **((وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا))** سورة البقرة الآية 204. ووصف الوليد بن المغيرة القرآن وقال: **((والله لقد سمعت من محمد كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن, وإن له لحلاوةٌ, وإن عليه لطلاوةٌ, وإن وأعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق))** .

ومن المسلّم به أن البلاغة بوصفها علمًا ذا قواعد وقوانين لم تكن كذلك دفعة واحدة, بل كانت شذرات مفرقة ولؤلؤا منثورا هناك وهناك التقطها الغوّاص حتى بدت باسقة الظلال وارفة الأفنان ممتدة الجذور في العصر الجاهلي ومن ثم في العصر الإسلامي , فالبلاغة شأنها شأن العلوم الإسلامية الأخرى مرت بمراحل عديدة حتى اكتمل نضجها, وأصبحت علمًا مستقلا بذاته , وكما ذكرنا آنفا عُرف العرب بالفصاحة والبلاغة وحسن البيان حتى بلغوا في الجاهلية مرحلة رفيعة فاقوا بها الأمم, وأقر لهم القرآن بها فجاءت معجزة رسول الله من جنس ما حذقوه وتباهو به, ورغبة الرقي بأدبهم –ولاسيما الشعر-كانت لهم نواد ومهرجانات ثلاثة في السنة أشهرها عكاظ تعرض فيها أشعار الشعراء كل عام لدى حكم فيحكم بأشعرية صاحبه هذا العام أو من أشعر المتقدمين, مبينا سبب التفضيل أحيانًا.

ويمكن أن يستدل الباحث على أن العرب عرفوا كثيرا من الأحكام النقدية قبل الإسلام بأمرين:

الأول: عقلي لا يمكن إنكاره, وأنه لا يصدّق أن الشعر وصل إلى ما وصل إليه في ذلك العهد, وإن الخطابة بلغت ذروتها, وإن اللغة أخذت صورتها من غير أن تكون هناك أصول عامة تعارف عليها الشعراء والمتكلمين وساروا عليها فيما نظموا أو قالو.

الثاني: نقلي وما أثر عنهم وما جاء عن خطبائهم ووصف خطبهم, وقد كان الخطباء يعتزون ببيانهم ويفخرون بأنفسهم, ولما دخل ضمرة بن ضمرة على النعمان بن المنذر زَرَى عليه للذي رأى من دمامته وقصره وقلته, فقال النعمان: ((تسمع بالمعيدي لا أن تراه)) فقال: أبيت اللعن, إن الرجال لا تكال بالقفزان ولا توزن بالميزان وليست بمسوك يستقى بها وإنّما المرء بأصغريه : بقلبه ولسانه, وإن صال صال بجنان وإن قال قال ببيان, وكان ضمرة خطيبا فارسا شاعرا شريفا سيدا وكان يحكم وينفر بالأسجاع.

وحفلت كتب الأدب بنماذج تظهر مقاييس الجمال الأدبي عند العرب من انتقاء ألفاظ ومعان, فاشتهر فيهم الخطيب المفوّه والشاعر الخنذيذ وماز بعظهم بما عرف به من انتقاء لفظ وحسن نظموإصابة معنى فكانت ملاحظات روعيت أثناء المحاكمات والموازنات البلاغية فيما بعد. ولعل من بواكرها المتلمس الضبعي وقف ذات يوم في مجلس لبني قيس بن ثعلبة وطرفة بن العبد يلعب مع الغلمان فأنشد المتلمس هذا البيت :

وقد أتناسى الهَمّ عند احتضاره بناجٍ عليه الصَّيعرية مُكدَم

والصيعرية –فيما يزعمون- سمة توسم بها النوق دون الجمال فقال طرفة بن العبد –وهو صبي- استنوق الجمل, فضحك القوم فغضب المتلمّس , فالمتلمس استعار صفة النوق للجمل فلم يرها طرفة مقبولة. وهذه الإستعارة السيئة أو غير المفيدة التي ذكرها البلاغيون فيما بعد.

وذكروا أيضا أنّ النابغة الذبياني تضرب له قبة من أدم بسوق عكاظ, يجتمع إليه فيها الشعراء, فدخل إليه حسان بن ثابت وعنده الأعشى, وقد أنشده شعره:

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالي وما ترد سؤالي

وأنشدته الخنساء إحدى مراثيها:

قذىً بعينكَ أم بالعين عوَّارُ أم أقفرت إذ خلت من أهلها الدار

فقال النابغة : لولا أن أبا بصير أنشدني قبلك لقلت إنك أشعر الجن والإنس. فقال حسان أنا والله أشعر منك ومنها, فقال النابغة حيث تقول ماذا , قال حيث أقول:

لنا الجَفَنات الغرُّ يلمعنَّ بالضُحى وأسيافُنا يقطرنَ من نجدة دما

وَلَدنا بني العنقاءِ وابنى مُحرّق فأكرم بنا خالًا وأكرم بنا ابنما

ومعنى البيتين أن حسان يفخر بقومه اليمانيين وكرمهم وأن لهم جفانا ضخمة –أي أوعية ضخمة للطعام- تنصب في الضحى ليأكل منها الناس وفي الوقت نفسه فهم شجعان أسيافهم تقطر دما من كثرة نجدتهم للناس, ثم يفخر بأنهم أهل الهذين (العنقاء) و(ابني محرق)فأكرم بنا نحن الأخول, وأكرم بالأبناء.

فقال النابغة: إنك لشاعر لولا أنك قللت عدد جفانك, وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك, وفي رواية أخرى أنه قال له : قلت الجَفَنات, فقللت العدد ولو قلت الجفان لكان أكثر وقلت يلمعن في الضحى, ولو قلت يبرقن في الدجى لكان أبلغ في المديح, لأن الضيف في الليل أبلغ أكثر طروقًا , وقلت يقطرن من نجدة دما, فدللت على قلّة القتلى , ولو قلت يجرين لكان أكثر لانصاب الدم, وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك, فقام حسان منكسرا منقطعا. ونلحظ هنا أخذا وردّا بين النابغة وحسّان ثم إن هذا الحكم المعلل يدل على تمكنه من حكمه مستنداً إلى معنى الكلمة من حيث اصطفاؤها ونظمها بين أخواتها في سياقها التركيبي.

ولم يقتصر الأمر على الرجال بل كان للنساء حكم في التذوق البلاغي ونقده, فهذه أم جندب زوج امرؤ القيس احتكم عندها علقمة الفحل , وكان ينازع امرؤ القيس الشعر, فقال كل واحد منهما لصاحبه : أنا أشعر منك , ورضيا بتحكيم أم جندب بينهما , فقالت أم جندب: قولا شعرا تصفان فيه الخيل على رويّ واحد وقافية واحدة , فقال امرؤ القيس:

فللزجر ألهوب وللساق درّة وللسوط منه وقع أخرج مهذب

وقال علقمة:

فأدركهن ثانيًا من عنانه يمر كمر الرائح المتحلِّب

ففضلت أم جندب علقمة, وقد سأل امرؤ القيس بمَ فضلته عليّ؟ فقالت : فرس علقمة أجود من فرسك, قال وبماذا؟ قالت: جهدتُ فرسك بسوطك وزجرك , فأتبعته بساقك وقال علقمه: فأدرك طريده وهو ثان ساقيه ولم يضربه بسوط ولم يتعبه.

وذكر أبو هلال العسكري أن القدماء اشاروا إلى الفصل والوصل في الكلام , قال: "وكان أكثم بن صيفي إذا كاتب ملوك الجاهلية يقول لكتابه افصلوا بين كل معنى منقض, وصلو إذا كان الكلام معجونا بعضه ببعض.

على أن العرب في جاهليتها كانت لديهم ملكة فنية في الاختيار والنقد وإن لم يتم التوافق بين اللفظ والمعنى ومع أنها ملاحظات قيمة, ولكنها تبقى ذوقية فطرية تعتمد على السليقة العربية الأصيلة, ولا تقوم على التعليل والتفصيل, ومع التطور الثقافي ظلت هذه الملاحظات المنثورة أساسًا لما ذكره علماء البلاغة والنقد من أحكام بلاغية فيما بعد.

التطور البلاغي في صدر الإسلام:

لا فاصل زمني بين العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام , فالعرب في هذا العصر بلغوا منزلة سامية بلاغة وجودة, فشرفوا أن ينزل القرآن بلسانهم لا بلسان غيرهم, فلما بهرهم جمال لفظة ولطف معناه ومتانة نظمه –وهم رأس الخطابة والبلاغة والفصاحة وقول الشعر- أذعنو أمام تحدّيه , وأيقنوا أنه ليس بمقدور بشر مضاهاته , فلا بيان أبين من بيانه ولا كلام أجمع من كلامه وأتم.

وذكر كلامًا جفَلت به كتب السير للوليد بن المغيرة عم أبي جهل , وكان من عظماء قريش, لمّا سمع من النبي **((إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ))** طلب إعادتها عليه ثم قال لقومه بني مخزوم: **((والله لقد سمعت من محمد كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن, وإن له لحلاوةٌ, وإن عليه لطلاوةٌ, وإن وأعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ما يعلى عليه))**. وهذه شهادة عدوٍ لدود من قوم معدنهم بيان وديدنهم فصاحة , وتبجحهم بلاغة ؛ إذ هي شهادة عن أهل البلاغة واللسن تدل على تمكنهم وقدرتهم على تمييز البليغ والأبلغ, ويظهر أن قريشا كانت الحكم التي ترضي حكومته , ولا يرد قضاؤها , إذ جاء في الأغاني: "أن العرب كانت تعرض أشعارها على قريش فما قبلوه منها كان مقبولا وما ردّوه منها مردودًا".

أمّا كلام رسول الله وسمو بلاغته فيكفي أنه كان ينتقي من غير تكلف الألفاظ المناسبة للمعاني المطروحة في الحديث: "لا يقولن أحدكم خبُثت نفسي, ولكن ليقل لقسَت نفسي" وذلك كراهية إضافة الخبائث إلى المؤمن وتتجلى الدّقة اللفظية في تصحيحه للبراء بن عازب حين قال "آمنت بكتابك الذي أنزلت ورسولك الذي أرسلت" فقال له: " لا ونبيك الذي أرسلت" ولا ريب أن ثمة فرقا في المفردات ثم في التركيب بين النبي والرسول لفظا ومعنى. وللحديث عن بلاغة النبي كلام طويل, وأنقل ما قاله الجاحظ في وصف منطق رسول الله: "لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعًا ولا أقصد لفظًا ولا عدلًا ولا وزنًا ولا أجمل

مذهبًا ولا أكرم مطلبًا ولا أحسن موقعًا ولا أسهل مخرجًا ولا أفصح معنىً ولا أبين في فحوى من كلامه".

أما عصر بني أمية:

نجد أثرًا ملحوظًا لتصور معنى البلاغة في جواب صحار بن عياش العبيدي لمعاوية بن أبي سفيان "ما تعدون البلاغة فيكم؟ قال: الإيجاز, قال وما الإيجاز؟ قال صحار : أن نجيب فلا نبطئ ونقول فلا نخطئ".

ما سلف ملاحظاتٌ ذوقية فردية لم تكن مقياسيًا يقاس عليه , ولا نظاما يسار عليه بل هي درر منثورة في بطون الكتب التقطها البلاغيون ولا سيما اللغويون , ويمكن القول: إن دراسة البلاغة نمت وشبت في ظلال القرآن الكريم وأول بذورها في كتب معاني القرآن لأن العلماء شعروا بواجبهم نحو كتاب ربهم , فعقدوا العزم على بيان مجازه ومعانيه وبيان غريبه ومشكله يضفون على كتاباتهم مسحة جمالية تجود بها قرائحهم بما ملكوا من قدرات علمية ومواهب إيمانية، وقبل الولوج في ذلك أحب أن أشير إلى عالم قل نظيره في صدر بني العباس، وله بصمة بارزة في علم البلاغة، وهو عبد الله بن المقفع (143هـ). وهو كما قال د. شوقي ضيف: "يعد في طليعة من ثبتوا الأسلوب العباسي الجديد الذي سمي باسم **الأسلوب المولد**: وهو أسلوب يمتاز بالنصاعة والدقةفي اختيار الألفاظ، ووضعها في أمكنتها الصحيحة، وبث المعاني المستحدثة فيها دون عوج أو تعقيد".فابن المقفع وظف أسس الكلام البليغ في مطابقته لمقتضى الحال من إيجاز وإطناب وحسن استهلال ودلالة

صدر الكلام على آخره, "فلم يفسّر البلاغة تفسير ابن المقفع لها أحد قط لما سئل: ما البلاغة؟ قال: البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الحديث، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا، ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعراً، ومنها ما يكون سجعاً وخطباً، ومنها ما يكون رسائل، فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى. والإيجاز هو البلاغة، فأما الخطب بين السّماطين وفي إصلاحة ذات البين، فالإكثار في غير خطل والإطالة في غير إملال، وليكن في صدر

كلامك دليل على حاجتك كما إن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته، قال: فقيل له: فإن ملَّ المستمع الإطالة التي ذكرت إنها حق ذلك الموقف، قال إذا أعطيت كل مقام حقه، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو؛ فإنه لا يرضيهما شيء، وأما الجاهل فلست منه وليس منك، ورضا جميع الناس شيء لا تناله، وقد كان يقال: "رضا الناس شيء لا ينال". ويلاحظ تبلور فكرة مخاطبة كل إنسان على قدر استعداده في الفهم ونصيبه من اللغة عند البلغاء، فلا يجوز أن يخاطب العاميّ بما يخاطب به الأديب الملمُّ بلغة العرب وأسرارها. فقد ذكروا أن بعضهم قال لبشار بن برد: يا أبا معاذ، إنك لتجيء بالأمر المهجن. قال: وما ذاك؟ قلت: إنك تقول:

إذا ما غضبنا غضبة مضريّة هتكنا حجاب الشمس أو مطرت دما

إذا ما أعرنا سيدا من قبيلة ذرى منبر صلى علينا وسلما

ثم تقول:

ربابة ربة البيت تصب الخل في الزيت

لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

فقال: كل شيء في موضعه. وربابة هذه جارية لى، وأنا لا أكل البيض من الشوق، فربابة هذه لها عشر دجاجات وديك، فهي تجمع على هذا البيض وتحظره لى، فكان هذا من قولى لها أحب إليها وأحسن عندها من قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل.

إذن فقوام البلاغة مرتكز على عنصريين رئيسين: هما اللفظ والمعنى، ولا غنى لأحدهما عن شقيقه، فالألفاظ أجساد، والمعاني أرواح، وإنما تراها بعيون القلوب، فإذا قدمت منها مؤخّراً، أو أخَّرت منها مقدماً أفسدتَ الصورة وغيّرت المعنى، كما لو حوّل رأس إلى موضع يد، أو يد إلى موضع رجل، لتحولت الخلقة، وتغيّرت, فالمعنى لا يقوم بغير لفظ كما لا تقوم الروح بغير جسد.